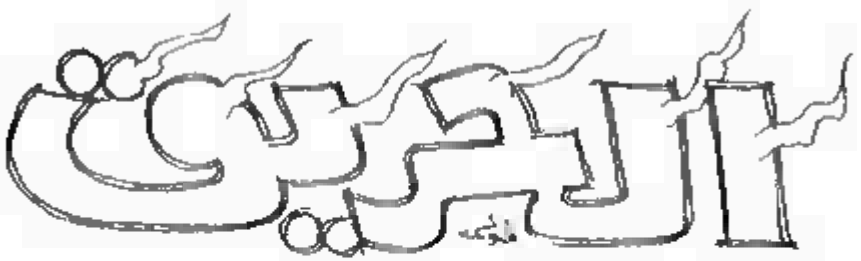

بقلم : فخرى فايد

وتوجهت الأبواب الخشبية منفتحة لتدفع من ورائها اجساد نحيلة تجرى ملهوفة تجاه الصوت الحاد المستغيث ، تستعيذ بالله ، وتضرع اليه سبحانه ان يستره ، وتتساءل عن المسكين الذى حاقت به الكارثة ، لتكن سرعان ما تجمع همهماتها فى نداء يحث على الاسراع .

وتستجيب السوق فتوسع من اضراحها ، وتلقى الجرع امام المنزل المحترق ، ويردحم الدرب بالعيون المستطلعة لحظات ، ثم تلمحها لأعلى فتطفو فوق اسطح الدور تحيط بالنار ولا يتبقى بالدرب سوى عينين تبرقان متلصصتين فى ظل أحد الاركان ترقب اللهب فى تلدد وشماتة ثم تنحدران لاسفل فتجدا ادرع الرجال ترتفع وتهبط بلمعى ساحقة الشرر المتطاير بينما انهمرت أكمام السترة محتضنة الحرار تفرغ ما تحويها من مياه حول النار فتضيق العينان حنقا ، وتستحيل نظراتها مقتا رهيبا تنهمر به الأجساد المتقدمة فى اصرار لتحصر الحريق .

وتتماوج نسمة رطبة فتلسع العينين وتحملهما تطرفان ، وحينما ترتفع جفونهما تستكشفان عن طريق كله تس راحب تلاحق به النسمة المدبرة ما هذا؟ لم تراك واقفا هكذا ؟ ..

وتجرع العينان فتسرعان بالاختفاء لا تلبثان ان تطلعا توحش يربحه صوت أحش انطلق من قرب ، لقد ذهبت .. وانا عائد لنوى من هناك بعدما وجدت ريح الجمر لم يزل ينادى على المركز كى يرسلها .

حسنا — رح ثانية لترى ما تم ، ولتتعجل اتمام الاعمال اذ يبدوان الريح موشكة على الهبوب .

وتتألق العينان بالرجاء حتى لتوشكان ان تنطقا بالبت ، ويحتج ذو الصوت الأحش ، ولم لا تذهب انت ؟ اتراك اعلى منزلة منى ، أم ترانى حمار سماح فلا عمل لى الا المشوره بينما انتم تحاولون اطفاء الحريق ؟ ..

اوح الرجل الواقف على حافة السطح

بذراعه وصاح في صوت عال ما رحب .. اطلع انهي داري ؟ ..

واستدار مبتعدا ـ وبقي دو الصوت الأجش واقفا في تردد انعكس قلقـا فوق صفحة العينين، لكن سرعان ماتحول القلق الى ارتياح لما تحرك دو الصوت الأجش الى داخل الدار مهمهما ، وهل تراها دارى انا ؟ ..

وهمت بسبة .. فاخرى اعنف من سابقتها . ثم تتابعت السبات متصلة وبدأت النيران التي كانت أخذة في الانكماش تتعرد مستعيدة قواها وتستعير صوت قلق ما مال رجال الاطفاء لم يجيبوا يا اخوان ؟

لكن الصوت يضيع وسط فحيح النيران ، والانفجارات المكتومة احيانا كالآهات، المدوية احيانا أخرى كالصراخ التي تطلقها كيران الذرة المدفونة تحت حرم الحطب وحباتها تندفع لأعلى متوهجة لتتناثر هشيما اسود فوق الجموع التي ازداد صخبها وكثرت نداءاتها وترتسم الراحة فوق العينين وهما ترمان الهلع الذي دب وسط صفوف المقاومة فتخبط متضاربة بعضها ببعض ، وترتفعان مع امتداد أعمدة اللهب التي استطالت تتماوج عملاقة .. رهيبة ، تكاد تلامس وجه السماء المكفهر بالسحب فتمتلىء العينان رهبة وتعصفان لطرف ملاهيتين بالتحديق في الرفاق الخالي ..

ويعود الصوت القلق يلح يا اخوان يجب أن يجيء رجال الاطفاء ..

ولا من مجيب فالرفاق جاو والجميع منهمكون في الصراخ واصدار الاوامر وتتقدم العينان الى الامام قليلا ثم تعودان ثانية للارتداد في الظل وقد حنا بريقهما وفاضتا بالقصاص قاتم يا اخوان انسا احجر من أن نقف امام هذا الحريق . انه يلتهم كل شيء فالنيران جذورها عميقة وقد تمتد لتحرق البلدة كلها .

وتحفل العينان ، ثم تمرقان خارج نطاق الظل تشقان الرفاق جلعة قلا توقفان الا وقد تنتا فوق شيخ الخمر وقد جلس يتشهد منهارا في توق الهاتف في الطريق .. انهم في الطريق .. اذن سيحضرون .. اكد عليهم فالحريق كبير انا اقول الحريق لا الفاعل .. فاعل ماذا ؟ .. نعم .. نعم مجهول .. مجهول .

ويعلق شيخ الخمر سماعة الهاتف ويرفر قاردا ظهره فيصطدم بصره بالجسد المقرور وقد اطلت منه نظرات كلها لهفة وتساؤل فيروم هـ .. م ماذا ترد يا ولد صاحي ؟ .. والمحروقة ؟ .. انها في الطريق كان المفروض أن تكون قد وصلت منذ زمن ولكنها ضلت الطريق ودهست كالعادة الى قرية المراقبة . وكأنه لا تكون حرائق في الدنيا الا والمراقبة مصدرها . المصيبة انهم يستفسرون في قلق عن الفاعل لا عن الخسائر .

ويضرب شيخ الخمر كفا بكف وهو يعجب للأمر ، مصيبة والله مصيبة ؟ . لكنه سرعان ما يتحول ليعجب من امر الولد الحمار الذي جرى وتركه يحادث نفسه طوال تلك المدة .

وقف الصاحي وسط الرجال يرف البشرى مؤكدا ان رجال الاطفاء سيصلون

بعد لحظات ، لكنهم لم يأبهوا به فلقد راحوا يتراجعون في انسحاب امام وهج النيران المستمرة ، ويؤكد الصاحي وكتاب الله لقد سمعت شيخ الحي وهو يقول انه سيسرع ليبتطرهم عند مدخل البلدة .

ويصرخ صوت آمر : احلوا الاسطح المجاورة مما عليها من حطب ، هذه الدار قد حكم عليها بالدمار وعلينا ان نؤمن الدور المجاورة من شرها .

ويلمع انعاس لاهثة وجه الصاحي فقط لو تعرف الفاعل لمزقناه شر ممزق .

ويتوسل الصاحي ، يا اخوان يجب ان نصمد .. لحظات ويحيشون .

ويعوي صوت غاضب : ماذا نفيد من مجيئهم وصفاير الاطفاء غير صالحة ؟ ويرد الصاحي في رجاء : سيتصرفون انه عملهم وحتما سيجدون اكثر من حل .

والاجساد تتراجع .. والصاحي كاد ان يصيح وحيدا فوق السطح الملتهب ، فاندفع يحتطف عصا من يد تتراجع ، وتقدم ينهال بها فوق النار ، يا رجال يجب أن نصمد ، كل ماعلينا ان نصمد تقدم يا آخ .. ساعد يا زميل عنك ..

وهناك انهار رجل . رمقه الصاحي واستدار ، لكنه لم يبرح مخيلته ، بقي يهمس معاتبا : اهكذا تفعلها ياصاحي ، امن اجل خلاف بينك وبين عبد العفار تحرق زرقه وورق عياله ، ثم هناك ستحرق البلدة كلها ؟! ومن خلال اللهب اطل وجه عبد العفار حزينا يائسا ، تنطق ملامحه بالضياع ، ومن حوله التف عياله يتعلقون بجلبابه ويصرخون في رعب ، وتشتد ضربات الصاحي في حمل ، فيهتز بدنه المحموم ، وتتناثر دموعه مسالة فوق وجهه عاسلة مايلطخه من سواد ، سامحني يا عبد العفار .. سامحني ، لقد كنت أخطأت في حقك - لقد كنت دائما احقد عليك وانا اساس الخطأ بالرغم من انك ظهرت بمظهر المخطيء ، فلقد تعمدت ان اقسو على بقرتك بالضرب ، فكنت اضربها في اماكن تجعلها تسقط حتيتها ، لاني كنت غيرانا منها ، لذا رحت انتظر الفرصة حتى اطفيء نار على ، فما ان شاهدتها تحمل متجهة من الطريق حديقة الى زرعي حتى كان ما كان . مع انه كثيرا ما تخطيء دوابنا الطريق فنردها اليه دون ان نعاملها بمثل تلك القسوة ، لكن حسدي أعماني فسامحني .. سامحني يا عبد العفار .

ويود عبد العفار لو يسامحه ، لكن رجوها كثيرة تمرر من وسط اللهب ، ملتفة حوله ، تكتم فمه محتجةفي غضب لا تعفر له .. لا تعفر له .. احرقه .. احرقه .

ويزداد حقدها ، ويتمدد احرقه .. احرقه .. احرقه .. احرقه .

حتى ليشمل كل شيء احرقه .. احرقه .

ويقترب وجه عبد العفار من الصاحي وعد مسحه على اسود يغشه كل خلية من خلاياه فيحيط بالصاحي ثقيلا ثقيلا يكاد يحمد انفاسه احرقه ... احرقه .

وتحدب الصاحي قوة جبارة،فتحرجه من نطاق الحقد فيشهق لاهثا لا ..

لا .. دعني .. دعني لن أخف .. يجب ان يخمد الحريق .. يجب .

وراح يجاهد حتى استطاع الافلات من اليد التي حدثته بعيدا عن الجزء الملتهب من السطح ، والذي ما لبث ان انهار فحصر الثيران اشعل بين الجدران .

وافاق الصاحي ليجد نفسه وقد تصلبت ساقاه وانتصب جسده على حافة هاوية قرارها سعير . فاستدار يجري الى الجانب المطل على الطريق صارخا في فزع يجب ان نحصر الثيران في الداخل يا رجال .

ثم قفز من فوق السطح الى الأرض وادهشت قفزته الجميع فتابعوه بنظراتهم ثم سعوه باجسادهم ، وقد دب فيها حماس دافق . وتساءل رجل وهو يتحفى من هذا الشجاع ؟ ..

فتفحصه حازم ، فلما تبينه . رد في عصبية ، الا تعرفه ياعبد الغفار .. انه من ضربت من أجل دفاعه عن زراعته !

وتسلل شعور الى اعماق عبد الغفار بأنه مسئول ، وزادت حدته لما استرجع صورته وقد وقف منذ لحظات وسط الرجال مستفسرا عن مكان الصاحي ، متمتما انه لو رآه فسيرمي به الى النار ، وحيل لعبد الغفار ان جميع الوجوه قد استدارت من داخل الدار وتطلعت اليه في شماتة وكراهية ، فامتلأ بالغضب ورد لو يصرخ فيهم .. ايها المخدوعون انه هو من اشعل الحريق .

لكنه قام من سقطته ، واخرى يرتجف في ركن قصالة داره . وابصرت عيناه من خلال الدخان الصاحي يقود الرجال الذين صيتوا الخناق على الجمر ، وتمنى لو يستطيل ذراعاه فيقذف به فوق الاثوار يأله من مخادع قدر .

انتفض رجل . فلوى رأسه وتطلع الى عبد الغفار في امتعاض . كان صاحب الوجه الذي سأله عمن يكون الشجاع . والتمعت عيون اربع فتجهم الوجه وظهر عليه القرف فتكورت منه الشفتان وبصق تجاه عبد الغفار واشاح .

وارداد غيظ عبد الغفار وصرخت اعماقه في صاحب الوجه .. انك حمار لاتعرف شيئا ، فليس هناك احد غيره اشعل الحريق .

وحيل الى عبد الغفار ان الوجه قد عاد يلتفت اليه من جديد . وفي هذه المرة لم يتكلم ايضا . وان استنكرت العيون فتحدثه . لا ياشيخ .. ومن ادن الذي بدا بالعدوان .. اهي نفرتك وقد افلتت من مربطها ، أم انت الذي اطلقتها من مربطها لتتلف زرع الصاحي لعرفك من نصرته ؟

ولم تتحول العيون عن عبد الغفار ، وظلت تعرس نظراتها المتحدية في عينيه فلم يملك سوى الاستسلام فأطرق .

وهبت سرعة الريح ثم تحولت نسمات واهنة ، وانكمش عبد الغفار في وقفته فالتصق محتميا في ظل الحائطين ، بينما شدد الرجال من حملقهم . فقست نظراتهم ، وزاد تقدمهم حتى لم يعد يبدو للجمر من أثر ، فليس هناك سوى رماد ودخان .

وتلصصت نظرات عبد الغفار متنقلة بين الاجساد الملاصقة ، حتى استقرت على الصاحي فعاصفت بود واسف يا ربي لكم ظلمتك يا صاحي .. فقط

لو تلفت وعثر الى ان اقبل ادن لارتميت فوق قدميك واعترفت لك بخطئي ، فانا المتسبب في الحريق وليس غيري .

وتمايل الصاحي فكاد جسده ان يطرح ، لكنه استند الى السلم الذي يتوسط الدار فصل بين الداخل والسطح ، وفرغت العينان ، واسرع عبد العفار يشق طريقه وسط الجموع ، واحتضن الصاحي فحال بينه والسقوط ثم حمله واستدار خارجا .

في الخارج كانت السماء صافية والنجوم تتألق ، والسحب قد استحالت دخانا سرعان ما تبدد بينما بقي الدخان المتصاعد من السطح تماما .

الى طوب جدار أسند عبد العفار جسد الصاحي ، وراح ينادي عليه ليفيق من اغمائه ، بعد حين فتح الصاحي عينيه والتقت بعيني عبد العفار وتحركت شفاه اربع في تناسق أخرج كلمات واحدة تطلب السماح .

ومن بعد بعيد كان ينساب صوت أحراس عربات المطافئ في رتيب واهن عطته رعرودة اطلقتها امرأة وتهليل فرح ارتفعت به عفيرة الرجال .